الفلسفة الاسلامية المتأخرة

للدكتور جواد علي

— ٣ —

ترك الملا صدرا طائفة من الطلاب والمتعلمين كان أبرزهم تلميذه الملا محسن فيض الكاشاني وهو محمد بن مرتضى المعروف بمحسن فيض (توفي سنة ١٠٦١ هـ)[١] . درس على الشيخ ماجد بن علي بن مرتضى البحراني المتوفى سنة (١٠٢٨ هـ) والشيخ ماجد عالم مشهور وشاعر معدود تخرجت عليه طائفة من علماء إيران والعراق اشتهر بالفقه والحديث والأصول[٢] . ودرس على الملا صدرا وعلى نفر من العلماء البارزين .

غلبت على الفيض نزعتان النزعة إلى الفلسفة العالية والنزعة إلى التصوف . فدرس كتب الفلاسفة وأصبح فيلسوفاً من كبار الفلاسفة ومارس التصوف حتى أصبح صوفياً من جماعة التصوفين فاتهم لذلك بنفس التهمة التي اتهم بها أستاذه الملا صدرا من قبل . « فنسب إليه الشيخ علي الشهيدي العاملي في ذيل رسالته في تحريم الغناء وغيرها كثيراً من الأقاويل الفاسدة والآراء الباطلة العاطلة التي تفوح منها رائحة الكفر »[٣] .

وقد ذهب مذهب أستاذه في تقديس ابن العربي والثناء عليه والنقل من كتبه[٤] . وهذا ما أهاج رجال الدين عليه . وهو صوفي بالطبع ومشربه يشبه مشرب أبي حامد الغزالي وقد توصل إلى نفس ما توصل إليه هذا العالم الأخلاقي الكبير[٥] ولكنه غالى في التصوف وفي الدفاع عن عقائد المتصوفة حتى تسمى « بالشيخ والدرويش » وحتى انتسب إلى « القلندرية » وقال « بوحدة الوجود »[١] . وكتب أكثر كتبه على طريقة المتصوفة والمتفلسفة حتى تلك الكتب التي ألفها في الفقه والأصول والتفسير[٢] يقول عنه صاحب روضات الجنات « ولاشتهار مذهب التصوف في ديار العجم وميلهم إليه بل غلوهم فيه صارت له المرتبة العليا في زمانه والغاية القصوى في أوانه وفاق عند الناس جلة أقرانه حتى جاء علي أثره شيخنا المجلسي ، فسعى غاية السعي في سد تلك الشقاشق الفاغرة وإطفاء نائرة تلك البدع الباترة »[٣] .

والمحسن فيض فيلسوف صوفي ، فمن المعقول إذاً أن يكون لسلطان العقل عنده المقام الأول بالنسبة إلى سلطان النقل . على أننا لا نلاحظ ذلك عنده لا في كتاباته ولا في تفكيره . نراه يقدم الأخبار على الرأي ويأخذ بالحديث بدلا من الاجتهاد . ويتهجم على « الأصولية » القائلين بمبدأ الاجتهاد في الفقه وأصوله . وقد كان « إخبارياً صلباً كثير الطعن على المجتهدين ولا سيما في رسالته سفينة النجاة حتى أنه يفهم منها نسبة جماعة من العلماء إلى الكفر فضلا عن الفسق »[٤] .

والأخبارية على نقيض « الأصولية » تعتقد بالأخبار الواردة عن الرسول والأئمة الاثني عشر المعصومين على رأي الشيعة الاثني عشرية وتقدم الخبر مهما كانت درجته على الدليل العقلي وحجتهم في ذلك أن الاجتهاد رأي والرأي لا يجوز في الدين ولذلك لم يعترفوا إلا بالكتاب وبالأخبار المروية عن النبي والأئمة واختلفوا عن الأصولية في درجات الحديث ، أما الأصولية فأخذت بالأدلة الأربعة : الكتاب والسنة والإجماع ودليل العقل[٥] . وقد رفضت القياس لأن القياس في نظرها رأي والرأي لا يجوز في

---

(١) روضات الجنات ص ٥٤٢ — ٥٤٩ قصص العلماء . رياض العارفين ٢٢٥ — ٢٢٦ Brown. Vol 4 p, 432. مجالس الفصحاء ج ٢ ص ٢٥ — ٢٦ .

(٢) عن الشيخ ماجد راجع روضات ج ٤ ص ٥٤١ .

(٣) راجع رسالة تحريم الغناء . وروضات الجنات ص ٥٤٣ .

(٤) نفس المصادر .

(٥) روضات الجنات ص ٥٤٣ . له ما يزيد على الثمانين كتاباً .

(١) نفس المصدر Brown p, 432. .

(٢) راجع قائمة كتبه في المصادر المذكورة وله كتاب « الوافي » في ١٤ مجلداً وهو جامع الكتب الأربعة في الحديث . وله كتاب « الصافي » في تفسير القرآن ويذهب في التفسير مذهب الأخباريين حيث يكثر من الحديث طبع بطهران سنة ١٢٧٦ راجع عنه شتروتمان في كتب الأباضية نمرة ١٣

(٣) روضات الجنات ج ٤ ص ٥٤٦ ويلاحظ أن الشيخ علي الشهيدي العاملي وهو صاحب هذه الكلمات التي نقلناها عن روضات الجنات من المتعاملين جداً على الفلاسفة والمتصوفة وكان محافظا جداً في آرائه بالنسبة الى هؤلاء .

(٤) روضات الجنات ج ٤ ص ٥٤٣ ، ٥٤٦ .

(٥) عن الخلاف بين الأصولية والأخبارية راجع روضات الجنات ج ٤ ص ٥٦٩ حيث تجد الخلاف بالتفصيل و ص ٥٤٦ Horten Akhbatti .

العبادة والدين[١]. ونسب إلى المحسن فيض القول «بوحدة الوجود» وقيل إنه ألف رسالة فى هذا الموضوع[٢] . ولكنه من جهة أخرى يتحامل على الدراويش والصوفية تحاملا قاسياً وله «مقامات» على طريقة مقامات الحريرى فى وصف حالة زمانه وأوضاعه السياسية وقد تحامل فيها على التصوفة وأصحاب الطرق تحاملا شديداً يكاد يجعله فى عداد المقاومين للصوفية على أنه نفسه من المتصوفة . غير أن تصوفه من قبيل تصوف الملاصدرا بلا ذكر ولا ملابس وعلامات[٣] .

ومن الذين تأثروا بمدرسة الملاصدرا عالم آخر وفيلسوف صوفى هو الملا عبد الرزاق بن على بن الحسين اللاهيجى المتكلم الشاعر وصاحب التصانيف فى الحكمة والكلام[٤] . وكان كالمحسن فيض صهراً للملا صدرا وخليفة من خلفائه فى الفلسفة الأشراقية وله فى هذه الفلسفة كتاب «شرح الهياكل فى حكمة الأشراق» وكتاب «الشوارق فى الحكمة»[٥] تلك الفلسفة التى ارتبطت بالصوفى الشهير السهروردى على الأخص والتى أصبحت ذات لون إسلامى خاص — والظاهر أنه لم يصل إلى مرتبة الفلاسفة المتقدمين بدليل ما قاله البعض عنه «من أنه كان قلندراً قبل أن يكون فيلسوفاً»[٦] .

أما الحاج ملا هادى السبزوادى (ولد سنة ١٧٩٧/١٧٩٨ م وتوفى سنة ١٢٩٥هـ) فقد كان آخر رجل من هذه الزمرة وهو شاعر فيلسوف طبعت أكثر كتبه فى إيران . مثل مدرسة الملا صدرا خير تمثيل[٧] .

رفض الملا هادى مبدأ «الاتحاد» أى اتحاد الله فى المخلوقات وفرق بين الاتحاد والحلول . فسر فكرة الاتحاد تفسيراً جديداً . إن «عقلى كل» «العقل الكلى» معناه اتحاد «الموضوع بالمحمول» ويتمثل الله الذى هو «العقل الكلى» فى «العقل» الذى يشع من نور «المبدأ» أو «العقل الكلى» فالعقل الكلى هو «العقل» أو «الكون» بنفس الوقت . ولكن ذلك لا يعنى على رأيه بأن الكون ذاته هو «الله» . ولا يمكن أن يكون الكون بجملته شيئاً يقابل «العقل الكلى»[١] .

إن الله بحد ذاته لم يتحد بهذا العالم اتحاداً تاماً ولم يحل فيه لأن الله مستقل بذاته والكون مستقل بذاته ولكنه لا شىء بالنسبة إلى ذات الله . إن الكون حجاب «Maya» لا يمثل الحقيقة والحقيقة هى الله والله هو أساس المخلوقات ولولاه لكان الكون لا شىء — ولكن الله يرسل نوره على هذا العالم فيشع عليه ويشرق الكون ولا يكون هنالك «إشراق» لولا «النور» الذى هو الله[٢] .

وقد مزج الملا هادى على ما يظهر بين فلسفة الأشراقيين وبين فكرة «المايا — Maya» البراهمية وتكون من هذا المزيج فلسفته الخاصة . فالكون على نظرية البراهميين خداع فى حد ذاته يظهر لنا كأنه الستار المنقوش على المرسح الذى يرى المناظر من بعيد كأنها أشياء واقعية ، وبفضل «المايا» التى هى إلهة آلهة من آلهة البراهميين التى تشرق بالمعارف على العالم تتم معارف الإنسان[٣] .

إن النفس الإنسانية واحدة وقديماً قال البراهمة بوجود نفس عامة للعالم من إشعاع تكون نفوس الأفراد[٤] .

وقد فسر ابن رشد نظرية أرسطو طاليس عن «النفس الكلية» نفس هذا التفسير[٥] . فمن النفس الكلية تنشعب النفوس الجزئية . وقد أيد السبزوادى هذا الرأى وصرح به أن المادة هى التى تتجزأ فى الأفراد أما الروح أو النفس فإنها «كلية» عامة وهى وحدها التى تتصف بهذه الصفة ، صفة العموم[٦] .

(انتهى)

جواد على

---

(١) نفس المصادر .

(٢) روضات الجنات ص ٥٤٥ وما بعد .

(٣) راجع مقامات المحسن فيض . وروضات الجنات ص ٥٤٦ .

(٤) Brown Vol 4 p, 435 .

(٥) Brown Vol 4 p, 435 روضات ص ٣٥٢ — ٣٥٣ قصص العلماء . رياض العارفين ص ١٦٥ — ١٦٦ مجمع الفصحاء Donaldson p, 303 .

(٦) Shea an Troyeos, أيضاً Brown Vol 4 p, 435 — 1 Dabistan. 1843 Vol 1. pp, 140 — 1. كتبه جوهرى مراد. سرماى إيمان

(٧) Brown Vol 4 p, 436 .

(١) راجع max Harten p, 142 Bektaschijje Jacob 56. 4.

(٢) راجع max Harten p, 142 الفلسفة الأشراقية وفكرة «المايا» فى الفلسفة البراهمية .

(٣) عن «المايا» راجع Smitt Hsnd Book of Pbilosophi. Art. wajā. أيضاً النصوص البراهمية .

(٤) Haten p, 142. a'denberg Brahmen Texts 1919 .

(٥) وقد نادى بهذه الفكرة بعض الفلاسفة المتأخرين أمثال : باولسن — Paulsen ، « Kulpe وأمثالها .

(٦) Harten p, 142 .